هرم الأهداف التربوية في العراق
مشروع القرن الحادي والعشرين

عبد الهادي خضير جبر•

يفترض أن لكل مجتمع فلسفة ،ولكل فلسفة أهداف محددة مشتقة منها وتؤدي بها إلى أن تصير سلوكاً إنسانياً إيجابياً كما أن لكل فلسفة ميادين متعددة ومختلفة يجري تطبيقها فيها وتسمى باسمها .فهناك فلسفة تربوية وفلسفة اقتصادية وأخرى سياسية....الخ .

وإذا كانت الفلسفة هي ((حب الحكمة))،أو هي تحليق للفكر الإنساني في فضاء الحكمة ،وعلى أجنحة من الوعي عالي المستوى ،أو باختصار هي غور للعقل في أعماق الأشياء ،فهي بذلك تكون إبداعاً للفكر ما بعده من إبداع لإغناء الحياة الإنسانية وجعلها اكثر معنى . فإن التربية هي ذلك النشاط الإنساني الموجه نحو تنمية الإنسان في قيمته الإنسانية قبل أن تكون قيمته المادية ،أو البوتقة التي تنصهر فيها الأفكار الفلسفية لتصبح واقعاً معاشاً . آوهي مجموعة الوسائل والأساليب والمضامين التي تتم بها عملية ترجمة الفلسفة إلى سلوك يومي إيجابي ملموس على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع. وتلقائياً سيصبح ذلك السلوك اليومي المعاش وبأنماطه المعرفية والمهارية والقيمية أهدافاً تربوية موثقة مشروعة للمؤسسة التربوية في أركانها النظامية وغير النظامية وبما تحتله تلك المؤسسة من مكانة متقدمة بين المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي يتكون منها نسيج المجتمع . وبناءً على ذلك يكون الهدف بمثابة التزام أو تعهد بتحقيق نتيجة معينة محددة وقابلة للقياس ضمن فترة زمنية معلومة . ومن وجهة تربوية قد يكون الهدف ((مستوى من السلوك المرغوب يراد الوصول إليه باستخدام الوسائل والأساليب التربوية المعينة المتاحة)) . ومن المتوقع أن يتدرج هذا السلوك في مستوياته وان يتمايز في تنوعه مع تقدم الإنسان في العمر أو لنقل مع تدرجه في سلم الهرم التربوي . ومن هنا تأتي فكرة ((الهرمية))في الأهداف التربوية لتكون مناظرة ومتماشية مع فكرة الهرمية في هيكل المؤسسة التربوية .

ومن الناحية النظرية على الأقل يكون للمؤسسة التربوية هدف تربوي واحد كبير أو عدد محدود من الأهداف التربوية التي تتصف بالشمولية المطلقة .ومثل ذلك الهدف، أو تلك الأهداف، سيكون مشتقاً مباشرةً من الفلسفة التربوية التي تشكل بدورها جزءاً لا يتجزأ من فلسفة المجتمع ،ويمثل هذا الهدف التربوي في هذه الحالة قمة الهرم التربوي .على أن كل هدف فلسفي لايمكن تحقيقه في كليته وبطريقة مباشرة دفعة واحدة وانما يمكن الوصول إليه من خلال تحقيق مجموعة من الأهداف التربوية العامة المشتقة منه التي يشكل أي منها جزءاً كمياً أو نوعياً أو جانباً من جوانب ذلك الهدف الأساسي . وبالمثل فان كل هدف عام ،هو الآخر ،لا يمكن تحقيقة دفعة واحدة وانما من

• استاذ مساعد كلية الادارة والاقتصاد جامعة القادسية

خلال تحقيق مجموعة من الأهداف الرئيسية ذات المستوى الأقل المشتقة منه ، والمؤدية إليه

وهكذا تتدرج الأهداف التربوية من الأعلى إلى الأسفل في تشكيلة تشبه الهرم لتستقر في قاعدته على مجموعة من الأهداف الإجرائية على مستوى الدرس الواحد أو المحاضرة الواحدة في مادة دراسية واحدة في مستوى ونوع تعليمي معينين فيدخل الأستاذ إلى الصف ويسطر الاهداف الإجرائية التي يريد أن يتعلمها الطلبة من المحاضرة على السبورة مثلاً ثم يجري اختبارهم على أساسها بعد ذلك . وهذا يعني من بين أهم ما يعنيه أن هناك صلة وثيقة، وان لم تكن مباشرة بالضرورة ،بين الأهداف الفلسفية العليا في قمة الهرم والأهداف الإجرائية في قاعدته . ومن هنا تأتي الحاجة الملحة لبناء هرم الأهداف التربوية في العراق ليس باعتباره ممارسة مثالية لترجمة فلسفة الدولة والمجتمع إلى وقائع سلوكية للإنسان العراقي الجديد يمكن قياسها وحسب ،وانما أيضاً باعتباره مشروعاً حضارياً طموحاً وصرحاً تربوياً شامخاً جديداً ينهض على ارض الرافدين وإبداعاً معاصراً وهويةً يلج بها العراق القرن الحادي والعشرين بعد أن نهض من كبوته التي استغرقته عشرات السنين .

وفي العراق لاتوجد، حتى اليوم ، فلسفة تربوية موثقة وواضحة المعالم وانما يمكن فقط الاستدلال على ملامح هذه الفلسفة من خلال الكم المتراكم من الادبيات التربوية والسياسية المتخمة بالمفاهيم والقيم المتقلبة تقلب الاهواء والمدعمة بالمواقف والاحداث التأريخية الناصعة احياناً والمشوهة بل والمزورة احياناً اخرى. ومن هنا تاتي الحاجة الى تطوير هرم للاهداف التربوية يقوم على فلسفة جديدة للتربية تنسجم وروح العصر والتطلعات المستقبلية ، وتتفق ايضاً مع القيم الانسانية النبيلة الجديدة المشتقة من القيم السماوية من مثل الديمقراطية والحرية وحقوق الانسان، فلسفة تقر بان الانسان قيمة عليا وهدف نهائي لاية تنمية وهو في الوقت نفسه اساس ومبدع هذه التنمية . ومثل هكذا فلسفة بحاجة الى بناء هذا الصرح التربوي المتمثل بالهرم المنشود للاهداف التربوية . فلم يعد التعليم على وفق هذه الفلسفة مجرد حق للمواطن وحسب ،وانما اصبح واجباً عليه لكي يكون مواطن صالحاً . ومن هنا أيضاً تبرز الحاجة إلى ترجمة فلسفة الدولة الجديدة والمجتمع الناهض ترجمة تربوية إلى مفردات سلوكية في المعرفة والمهارة والاتجاه يؤديها الإنسان العراقي ،تأخذ من العلم والأدب موضوعاً ومن الشخصية الفردية والوطنية والإنسانية ابعاداً.

وفي العراق اليوم حيث تنهار دولة لتقوم على أنقاضها دولة جديدة ومجتمع جديد بقيم جديدة قد تكون هذه المفاهيم غير معروفة لدى كثير من الناس من الناحية العملية.و كذلك وتتطلع الدولة الجديدة والمجتمع الجديد نحو أفاق مستقبلية واسعة المدى ولكي لا تتيه الدولة أو يتيه المجتمع ،بل لكي لايتيه الفرد في هذه الأفاق فلا بد من وضع الخطوط العريضة للمسارات التربوية بكل أنواعها ومستوياتها ممثلة هذه الخطوط بالأهداف التربوية الهرمية ناهيك عن أن هذه الأهداف ستتيح الفرصة كاملة للتقييم التربوي الموضوعي على مستوى الفرد والمجتمع، وعلى مستوى الطالب و الصف و المدرسة أو الكلية أو الجامعة أو النظام التربوي عموماً، وعلى مستوى المحاضرة والفصل والكتاب والتخصص عموماً ابتداءً بالأهداف الإجرائية وانتهاءً بالأهداف الفلسفية العامة . وبالرغم مما نتوقعه

من صعوبات ستواجه عملية بناء هرم الأهداف التربوية وما تتطلبه هذه العملية من وقت قد يستغرق عشرات السنين، ومن جهد فكري مبدع وجسدي جبار وما يترتب عليها من تكاليف في مراحلها الأولى على الأقل في مراجعة الفلسفة التربوية المندثرة لتأشير عناصر القوة فيها لتنميتها وعناصر الضعف لاجتثاثها وفي ابتداع الأفكار والتوجهات الجديدة المنسجمة مع القيم والمفاهيم الجديدة ومن ثم ترجمة هذه الفلسفة في هدف تربوي واحد أو اكثر يصاغ (أو تصاغ)بعبارة قصيرة واضحة ومباشرة لا تحتمل التأويل وتجزئة الهدف الرئيس إلى مجموعة من الأهداف الفرعية تدريجياً حتى الأهداف الإجرائية .. وايضاً بالرغم من الجهد الجهيد والفكر الخلاق الذي تحتاجه عملية إعادة النظر بالمناهج الدراسية وصياغتها من جديد بحيث يكون الكتاب الواحد أو المادة الدراسية الواحدة تتضمن عدداً محدوداً (مهما كبر)ومعروفاً من الأهداف الإجرائية .. نقول بالرغم من هذه الصعوبات المتوقعة فأننا على يقين بأن الكوادر التربوية الأصيلة في العراق تتمتع بالقدرات والإمكانات الكافية والكفوءة لإنجاز هذا المشروع الوطني خاصة و تحدوها في ذلك الروح الوطنية الوثابة وشعورها بالحاجة إلى إثبات الذات الوطنية في مواجهة عناصر الشر والظلام. وعلى قدر توفر الرغبة والإرادة أولاً والقدرة والإمكانات المادية والمعنوية ثانياً يكون إنجاز هذا المشروع ممكناً وعندما يكون ذلك ممكناً يكون من الممكن بالتاكيد ولوج العصر من أوسع أبوابة والامساك بزمام التقدم .